من الوظائف الاجتماعية للمثل الشعبي

المثل الشعبي من خلال الممارسات الاجتماعية

أ.أوراغي أحمد

أستاذ مساعد بقسم الثقافة الشعبية

جامعة تلمسان

الملخص:

يعتـــبر المثل الشعبي معيارا لقياس السلوك الفردي والجماعي في كثير من استعمالاته اليومـــية, وهو وليد تجارب وممارسات اجتماعية تسمح الاستعانة به تلخيص تفاصيل كـــثيرة وتجنـــب الخوض في كلام إضافي, وذلك بحكم اتفاق مستعمليه حول مغزى وهـــدف معاني وهدف استعماله الذي يخضع للمقومات الثقافية والاجتماعية والدينية للمجتمع.

رغم الوضوح الظاهر لمفهوم المثل الشعبي في أذهان الناس، إلا أن إيجاد تعريف جامع مانع له ظل من الصعوبة بمكان لتداخل ألفاظ وعناصر التعريف، وانسحابها على أنواع أخرى من فنون الأدب الشعبي، كالقول المأثور واللغز والنكتة، وما إلى ذلك من أشكال التعبير المستغرقة في دائرة الأدب الشعبي، وقد أكد الدكتور أحمد مرسي قائلا : " والحقيقة أن تعريف المثل ليس أمرا يسير ا، فمن الصعب تعريفه تعريفا شاملا جامعا مانعا، ذلك أنه يشترك مع غيره من أنماط التعبير الشعبية الفنية في بعض الخصائص، فإذا قـــيل أنه جملة قصيرة عند تحليل شكله فإن ذلك ينطبق على اللغز أيضا، وإن كان المثل جملـــة مكتفية بنفسها على عكس اللغز الذي يقتضي إجابة أو حلا حتى يكتمل المعنى، وإذا قـــيل أنه يحتفظ بقدر من الإيقاع انطبق ذلك على الأغنية واللغز وعلى اختلاف

بيـــنهما في الدرجـــة، كمـــا أنه إذا وصفه بجودة التشبيه والكناية اشترك مع الأنماط الأخرى أيضا في ذلك"[1].

ومن هنا يتبين أن الأمثال الشعبية تشترك مع غيرها من التعابير الأدبية الشعبية في كـــثير مـــن العناصر، لذا يصعب تحديد تعريف أو مفهوم دقيق، إلا أنه ومع ذلك اجـــتهد بعض المختصين وحددوا تعاريف خاصة ندرج ما تيسر الحصول عليه منها ، وتوضح لنا خصائص المثل الشعبي و مميزاته.

ورد في تعـــريف الألماني فيدريك زيلر للمثل بأنه عبارات متداولة بين الناس , تتصف بالتكامل و يغلب عليهما الطابع التعليمي , وتبدو في شكل فني أكثر اتفاقا من أســـلوب الحديث العادي. ومن ذلك فإنه يؤكد الطابع الاجتماعي في انتشار وتداول المـــثل وـــله وظـــيفة تعليمـــية, وفي هـــذا المجـــال يمكـــن إضـــافة تعـــريف " ARCHER.TAILOR" :ارش تـــايلور الذي يرى بأنه "جملة مصقولة محكمة البـــناء تشـــيع في مـــأثورات الناس باعتبارها قولا حكيما، وإنه يشير عادة إلى وجه الحـــدث، أو يلقي حكما على موقف ما هو أسلوب تعليمي ذائع بطريقة تقليدية"[2] ، ونميز هنا دور المثل في استخلاص العبر والحكم والأحكام الواجبة أو المناسبة للإحداث الاجتماعية.

وقد عرفه العرب القدامى على أنه:
نوع من أنواع الأدب يمتاز بإيجاز اللفظ وحسن المعنى، ولطف التشبيه وجودة الكناية.

وهو خلاصة تجارب كل قوم[3] ، ومحصول خبرتهم وهو ضرب من ضروب التعبير، توظف فيه الخبرة والحقائق الواقعية، وهو بذلك يختلف عن الشعر الذي يعد

الخيال عنصرا أساسيا فيه، كما أنه يمتاز عن غيره من ألفاظ التعبير بالإيجاز وجمال البلاغة.

والملاحظ أن التعاريف المذكورة على اختلاف واضعيها لا تتفق على تحديد دقيق وشامل للمثل حيث أن كل واحد منها يركز على جانب عناصر المثل إما بتحديد خصائصه الفنية أو اللغوية أو الاجتماعية أو النفسية أو الجمع بين بعضها، وعموما يتميز المثل الشعبي بكونه عبارة قصيرة نلخص حدثا ماضيا أو تجربة منتهية وموقف الإنسان من هذا الحدث أو هذه التجربة في أسلوب موجز وبتعبير شعبي يأخذ شكل الحكمة التي تبنى على تجربة أو خبرة مشتركة قد تكون في شكل حكمة أو حكم أو قول، إذا ذكرته قصدت به اختصار الكلام بالإيجاز وترك المجال للسامع لتفسير ما يليه من تفاصيل حول موضوع الحديث بناءا على معطيات الواقع الاجتماعي[4] الذي استخلصت منه التجارب.

وعلى الرغم من تعدد الأمثال إلا أنها تحتوي على خصائص مشتركة يمكن إجمالها فيما يلي:

1- جميعها تعتبر كلاما متداولا بين الناس

2- ذات طابع تعليمي ونوع من الأدب المجازي.

3- ذات مغزى يتعامل به الناس في حياتهم ليصلوا إلى غايتهم بأسلوب سهل.

4- ذات طابع تقليدي يبعد عن الأسلوب الأدبي الحديث يستعملها الناس بصورة اعتباطية.

- تلخص تجارب ووقائع اجتماعية ووقائع وسلوك شائع.

- تستعمل عند توفر المناسبة أو تكرار الواقعة أو تشابه الوقائع والمنسبات والسلوك والمواقف والأحداث التي أدت إلى تكوين المثل مع مواقف الحياة اليومية.
- وتتميز الأمثال بمصداقيتها وشيوعها وشمولها لأنها تعنى بجميع شؤون الحياة ولكل مثل من الأمثال قصة أدت إلى استخلاصه ويمكن من خلالها التعرف على العادات والتقاليد الخاصة بطائفة معينة أو شعب معين.

وظيفة المثل الشعبي :

يعتبر المثل الشعبي من أوسع فنون الأدب الشعبي شيوعا وانتشارا وأكثرها دورانا على الألسن ورسوخا في الوجدان ووثوبا إلى الذاكرة[5] . وقد مكنت وقد مكنت خصائصه التي يتمتع بها من إيجاز اللفظ، وبساطة التعبير، وبلاغة المعنى أن يكون سهل التداول بين الناس فيستنجد به في كل حديث مفيد لتدعيم الرأي وإقناع الخصوم باعتباره العرف الذي اتفق عليه غالبية أفراد المجتمع حتى أصبح بمثابة الضابط الاجتماعي الذي يوجه سلوك الفرد مع نفسه ومع المجتمع الذي يرتبط به ثقافيا.

لذلك تعتبر الأمثال الشعبية من مستلزمات الحياة الاجتماعية التي يصوغها الإنسان بتفاعلاته مع أبناء جنسه وهي بمثابة الإطار الذي يضبط النشاطات الاجتماعية وقيمها الأخلاقية ويحدد ما للإنسان فيها وما عليه حتى لا يظل في متاهات الانحراف ويتمادى في معرضة القيم والعادات والأعراف الاجتماعية.

ويمكن من خلاله أيضا في توجيه الأفراد وتعريفهم بالقواعد السلوكية المستجابة التي يجـــب اتباعها والنواحي التي يجب الابتعاد عنها مما يعصم المسترشد بها من الوقوع في

الخطـــأ والخـــروج عن قواعد السلوك العام، باعتبار الأمثال الشعبية ممثلة للضمير الحي لكـــل أمة في أرقى صوره، بتمييزها بين السلوك السوي[6] وغير السوي وتحاول إلزام الناس على الإقتداء بمضمون الحكم والتجارب والأمثال التي تحملها وتحمل وجه التنبه عليها.

ويمكن الاستشهاد في هذا الموطن بالعديد من الأمثال الشعبية المتداولة في الحياة الاجتماعية والتي تتعدد وظائفها الاجتماعية بتعدد مشاكلها[7] .

" زيتنا في دقيقنا " للحث على الزواج من الأقارب

" اللي بعيد على الحسب يسمى عاقل " للدعوة لتفادي المشاكل

" ليضربك القاضي لمن تشتكي " للإشارة للظلم والتسلط

" جزار ويتعشى بورق اللفت " في إشارة للبخل

ويتبين من خلال ما سبق أن للمثل الشعبي دورا هاما في الحياة الاجتماعية فيكون تارة كمرجة للأفعال الاجتماعية[8]

وتارة أخرى تحكم أو ضابط لقياس صحة الممارسات الاجتماعية وتوجيهها لما هو أنفع.

فالأمـــثال نلجأ إليها حينما نود أن نتجنب التفكير الطويل في نتائج تجربتنا، ونحـــن نذكـــرها بحريـــتها إذا كانت تتفق مع حالتنا النفسية، بل أننا نشعر بارتياح لسماعها و المثل يقوم بهذه الوظيفة في حياتنا الاجتماعية اليومية بضرورة داعية لذلك [9] , فلكـــل مـــثال حـــالات خاصة ومقامات مشهورة تظهر بها فإذا عرضت الحالة وناســـب المقـــام وظفـــت في سياق الكلام بحسن الصياغة واختيار الألفاظ والمعاني، فيتناولها الجمهور للاستشهاد بها فتنتشر وتدوم بالاستعمال والتداول.

ويلاحـــظ أن أســـلوب المثل وطريقة صياغته يلعبان دورا هاما في رسم دوره **الذي يؤديه في المجتمع**، فنحن لا نجد في الأسلوب الذي تصاغ به الأمثال إلا النصيحة التي تؤدي وظيفة اجتماعية مهما اختلفت صيغة المثل فنجد أن الأمثال تنقل اقتراحات وحلول و نصائح مختلفة [10] مثل "حب الكلب من فمه حتى تقضي حاجتك منه "أو " الـــيد اللي ما تقدرش تدوسها بوسها ", "اسمع بزاف و تكلم شوية "أو" اللي يجيبه الزعاف يجيبه السكات .

فهـــذه الأمثال التي تتضمن نصائح نجدها جميعها ذات وظيفة أخلاقية مؤداها الـــنهي عن المنكر و تقديم النصيحة للغير, وما يلفت النظر في الأمثال الشعبية أنها غالبا مـــا تكون متكاملة مع بعضها البعض أو متناقصة و هذا أمر طبيعي يعكس تناقضات الحـــياة الاجتماعية, والتناقص مرده إلى العوامل النفسية و اختلاف الظروف و طبيعة التركيب و البناء الاجتماعي و اختلاف المهن و المستويات المعيشية و تعارض للمصالح وكثرة الصراعات الاجتماعية .

ومـــن الأمثال ماله وظيفة أدبية أو بلاغية تقصد إلى أغراض فنية تمتع الحس بما تشتمل عليه تشبيه دقيق أو مفارقات مضحكة أو أحداث متناقضة وأخرى مسيلة يمتع السامع وتجعله يطلع على واقع اجتماعي يفيد في استخلاص التجارب [11] .

والمثل يدخل الحياة اليومية للناس من أوسع أبوابها بل أنه يعيش مع الشخص مرات عديدة في يومه و يترسب إلى حياته ويتخلل جزئياتها كما يعبر عن ذلك مثل شعبي روسي " بالمثل تشتري بأذنيك أحسن درس بأرخص ثمن".

- " فالأمثال تردد خلاصة التجربة اليومية التي صارت ملكا لمجموعة اجماعية معينة وتستحضر للماضي من خلالها وتكون معيارا"ومقاسا للنشاطات الفردية والجماعية[12]

ومـــن الوظـــائف الاجتماعية للمثل الشعبي أنه سلاح قوي يشهره العامة في مواجهة الشذوذ والانحرافات الاجتماعية ليحمي المجتمع عاداته وتقاليده ونظمه المتميزة ومـــن هـــنا يأخذ المثل بعد آخر يتعلق بالتشريع الاجتماعي، الذي يوجه الناس إلى ما ينـــبغي أن يكون أو إلى ما ينبغي أن يزول فإنه قد فرض الشروط والقوانين التي تنظم العلاقة بين الأفراد.

والتعليم يمثل إحدى الوظائف الاجتماعية للمثل- وليس الوظيفة الوحيدة له ومن هنا يتبين أن لمثل عدة وظائف فنية-ترويحية-اجتماعية-أخلاقية-تعليمية ولكل وظيفة من هذه الوظائف مئات الأمثال الشعبية التي تدعمها.

المراجع :

1- احمد أبو زيد وآخرون- دراسات في الفلكلور – دار المعارف للطباعة والنشر – القاهرة 1972-ص 311.

2- احمد بن النعمان. نفسية الشعب الجزائري.دار الأمة للتوزيع والنشر.1997 ص81.

3- نفس المرجع ص 82.

4-المدخل السوسيولوجي للإعلام تأليف أحمد الخشاب د.أحمد التدلاوي دار الكتاب الجامعية، دار الجيل .ص 107.

5- مختار محمد فؤاد أبو الخير. التواصل والاتصال- دراسة مقارنة للتعرف على الأمثال الشعبية.مجلة العلوم.الإنسانية –ديوان المطبوعات الجامعية .العدد 19 ص54.

10-نفس المرجع ص148.

11- احمد رشدي صالح. علم الفلكلور. الهيئة المصرية للكتاب القاهرة بدون تاريخ ص 243.

12- إبراهيم احمد شعلان. الشعب المصري من أمثاله العلمية. الهيئة المصرية للكتاب.القاهرة 1972.ص47.